التعايش بين المسلمين والنصارى في الأندلس في ظل الدولة الأموية وملوك الطوائف 138- 484هـ/ 755- 1091م

محي الدين صف الدين
جامعة معسكر،
moheiddine.saffeiddine@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 05/ 11/ 2018 ؛ تاريخ القبول: 11/ 04/ 2019

The Coexistence between Muslims and Christians in Andalusia during the Umayyad stateand the kings of taifas 138-484 H. / 755- 1091 AD

Abstract:

When muslims conquered Andalusia, they met the local inhabitants some were Jews and the vast majority were christians practising the catholic doctrine. Some of them embraced Islam, but big numbers remained on their christianity and preferred to live under muslim rule.

Muslims treated christians of Andalusia very well according to a number of verses of the Koran, hadiths of the Prophet and sayings of the godly ancestors, so they left the christians their churches and their monasteries, and they gave

المؤلف المراسل: محي الدين صف الدين
moheiddine.saffeiddine@univ-mascara.dz

them the freedom to perform their worship rituals as the ringing of bells inside and outside churches.

The Churche continued its social mission in Andalusia as celebrating marriage contracts, baptizing newly born christians and registering sales contracts among christians. On top of this, the Andalusian church gained its independence from the papacy center in Rome during the Islamic rule.

Christians were also free to run their administrative affairs, they elected their earls and judges to represent them at the ruling authority without any muslim rulers'interference.

Muslims also used the christians of Andalusia in managing the country, so they consulted them on sensitive issues concerning the security of Andalusia.They considered their opinions and employed them in high positions such as writing (al Kitaba) and ministry. They recruited them into the army, so some of them reached the highest military ranks, and some muslim rulers of Andalusia took military troops of christians and gained every confidence in them.

To sum it up, we can say that the christians of Andalusia lived their best time under the islamic rule in the mentioned above period.

keywords: Andalusia; Muslims; Christians; Umayyad state; Kings of Taifas.

الملخص:

عندما فتح المسلمون الأندلس وجدوا عددا قليلا من سكانها على الديانة اليهودية، بينما الغالبية العظمى منهم مسيحيون على المذهب الكاثوليكي، فاعتنق بعضهم الإسلام وبقيت أعداد كبيرة على نصرانيتهم، وفضلوا العيش تحت حكم المسلمين.

عامل المسلمون نصارى الأندلس معاملة حسنة وفق ما تنص عليه الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال السلف الصالح، فتركوا لهم كنائسهم وأديرتهم، ومنحوهم حرية أداء طقوسهم التعبدية، مثل قرع الأجراس داخل الكنائس وخارجها، وظلت الكنائس في الأندلس تقوم بوظيفتها الاجتماعية المتمثلة في عقد الزيجات، وتعميد المواليد واختيار الأسماء لهم، وتسجيل المبايعات والعقود بين المسيحيين، بل اكتسبت الكنيسة الأندلسية خلال الوجود الإسلامي استقلاليتها عن روما مركز البابوية.

كما تمتع المسيحيون بحرية تسيير شؤونهم الإدارية، إذ كانوا ينتخبون قمامستهم وقضاتهم بكل حرية ودون تدخل من الحكام المسلمين، وكان هؤلاء المنتخبون يمثلونهم لدى السلطة الحاكمة.

زيادة على ذلك استعان المسلمون بنصارى الأندلس في إدارة البلاد، بحيث استشاروهم في مسائل حساسة تتعلق بأمن الأندلس، وأخذوا برأيهم، ووظفوهم في مناصب سامية مثل الكتابة والوزارة، وجندوهم في الجيش، بل وصل بعضهم إلى أعلى المراتب العسكرية، كما اتخذ بعض حكام الأندلس فرقا عسكرية من النصارى لحمايته، ووضع فيهم ثقة كبيرة.

من خلال ذلك يمكن القول بأن نصارى الأندلس عاشوا أحسن أوقاتهم في زل الحكم الإسلامي خلال الفترة المذكورة أعلاه.

الكلمات المفتاحية: الأندلس؛ المسلمون؛ النصارى؛ الدولة الأموية؛ ملوك الطوائف.

مقدمة:

لما فتح المسلمون الأندلس سنة 92هـ/ 711م وجدوا غالبية سكانها نصارى؛ فأمنوهم على أرواحهم وممتلكاتهم وديانتهم ومعابدهم، وعرضوا عليهم الإسلام؛ فقبله بعضهم بينما ظلّ عدد كبير منهم على نصرانيتهم، ويذلك انتقل نصارى الأندلس من العيش تحت سلطة القوط إلى العيش في ظل الإسلام الدين السماوي الجديد وتحت سلطة إسلامية

متمثلة في الولاة إلى غاية سنة 138هـ/ 755م، ثم في ظل الدولة الأموية ثم ملوك الطوائف إلى غاية سنة 484هـ/ 1091م.

فما هي أبرز مظاهر التعايش بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس في ظل الدولة الأموية وملوك الطوائف؟ هذه الإشكالية التي سنحاول معالجتها من خلال هذه الورقات، مستعرضين طبيعة المعاملة التي عامل بها المسلمون، وخاصة الحكام منهم، غالبية سكان الأندلس المتمثلة في النصارى.

مكانة المسيحيين في المجتمع الأندلسي:

حظي أهل الذمة عامة والنصارى خاصة بمكانة جيدة في المجتمع الأندلسي المسلم ويعود ذلك حسب رأينا إلى أسباب نذكر منها:

- تعاليم الدين الإسلامي التي تجبر المسلمين على معاملة أهل الذمة معاملة حسنة، والآيات والأحاديث الدالة على ذلك عديدة منها قوله تعالى: " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨ " (المائدة، 8)، وقوله عز وجل: " وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦ " (التوبة، 6) ويقول تعالى أيضا: " لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ

عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ " (الممتحنة، 8).

بالإضافة إلى الأحاديث النبوية التي تحث على حسن معاملة أهل الذمة، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يُرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ عَلَى مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا " (البخاري محمد بن إسماعيل، 1407هـ/ 1987م: 3/ 1155)، ويقول أيضا: " أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِداً أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ " (أبو داود سليمان، د. ت: 3/ 170)، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: " وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، أن يُوَفّى لهم بعهدهم وأن يُقاتَل من ورائهم ولا يُكلَّفون إلا طاقتهم " (البخاري محمد بن إسماعيل، 1407هـ/ 1987م: 1/ 469).

- طبيعة وهدف الفتح الإسلامي لشبه جزيرة إيبيريا، والذي يتمثل في السعي لنشر الدعوة الإسلامية في أوساط أصحاب الديانات الأخرى، وتشجيعهم ودفعهم إلى اعتناق الإسلام، باللجوء إلى الوسائل السلمية قدر الإمكان.

- إضافة إلى الرؤيا التي رآها موسى بن نصير عند استعداده للعبور إلى الأندلس، إذ رأى الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يأمره بالرفق

بالمشركين (مؤنس حسين، 1405هـ/ 1985م: 440)، إلا أن المقري يورد رواية مختلفة عن السابقة مفادها أن طارقا رأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة يمشون على الماء، ويبشره النبي بالفتح ويأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد (المقري أبو العباس، 1997: 1/ 256)، أما ابن القوطية فيقول أن طارقا رأى النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار متقلدين السيوف ومتنكبين القسي، ويحثه النبي صلى الله عليه وسلم على دخول الأندلس (ابن القوطية أبو بكر، 1402هـ/ 1982م: 23).

إن تضارب الروايات، دليل على أسطورية هذه القصة، ولكن ما يمكن الاحتفاظ به منها، هو التزام الفاتحين بالرفق بأهل الذمة والوفاء لهم بالعهد.

ولهذا كله حظي النصارى بمكانة حسنة في المجتمع الأندلسي وتجلى ذلك في مظاهر هي:

منحهم الحرية الكاملة في تسيير شؤونهم الدينية والدنيوية:

حرص المسلمون على ترك الحرية الكاملة لنصارى الأندلس في تسيير وتنظيم مختلف شؤونهم الدينية والسياسية والمدنية، واحتفظت السلطة الإسلامية لنفسها بحق الإشراف والمراقبة وواجب توفير الأمن.

- **الحرية الدينية:** ضمن المسلمون منذ دخولهم الأندلس حرية العبادة لسكانها، وكان القادة المسلمون يبعثون رسلا إلى سكان المدن قبل وصول الجيوش الفاتحة إلى أبوابها، ليؤمنوهم على أرواحهم ودينهم وممتلكاتهم، فعندما اقترب موسى بن نصير بجيشه من مدينة سرقسطة (Zaragoza)، وشعر بهلع أهلها ونية قساوستها ورهبانها على مغادرة المدينة، بما تيسر لهم حمله من ذخائر وكتب مقدسة، أرسل إليهم رسولا يؤمنهم ويعطيهم عهده. (مؤنس حسين، 1405هـ/ 1985م: 103).

وكلما دخل الفاتحون مدينة من مدن الأندلس، ألزموا نصاراها الراغبين في البقاء على دينهم دفع الجزية مقابل الحرية الدينية والأمن والاحتفاظ بدور العبادة.

تواصلت حياة المسيحيين عادية في المدن المفتوحة، وأصبح بإمكانهم أداء شعائرهم الدينية بكل حرية (Duffourcq Charles Emmanuel, 1978 ; 73)، وقد أقرّ سيموني هذه الحقيقة في كتابه، رغم عدائه الشديد للإسلام والمسلمين، فقد اعترف بأن الكنائس في الأندلس لم تمس بأذى خلال الفتح، وأن عددا كبيرا من الأساقفة والقساوسة والرهبان الذين فروا عند دخول المسلمين، عادوا إلى كنائسهم بعد تأكدهم من تسامح الفاتحين تجاه أصحاب الديانات الأخرى ومعابدهم (Simonet Francisco Javier, 1967 ; 122).

لقد حافظت الكنيسة على سلطتها الروحية على أتباعها، كما احتفظت بممتلكاتها وإمكانية اكتساب ممتلكات أخرى عن طريق الوقف أو الهبات (Duffourcq Charles Emmanuel, 1978 ; 71)، بينما التزمت السلطات الإسلامية في الأندلس بعدم التدخل في الشؤون الدينية للمسيحيين فيما يتعلق بالعقيدة، وطرق أداء العبادات، والعادات الكنسية، أو عمليات انتخاب رجال الكنيسة لتولي منصب ديني، إلا إذا كانت الشخصية المنتخبة قد ناصبت الدولة الإسلامية ودينها وهياكلها العداء.

ففي النصف الأول من القرن الثالث الهجري(9م) انتخب أساقفة مطرانية طليطلة (Toledo) الراهب القرطبي إيلوخيو (Eulogio) لتولي منصب أسقف طليطلة، مع العلم أن هذا الأخير قد أعلن عداءه للسلطة الإسلامية، وكان يدفع الرهبان والراهبات إلى سب الدين الإسلامي والرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فرفضت السلطة الإسلامية توليه هذا المنصب، ولكنها في الوقت ذاته لم تعين ولم تقترح أحدا مكانه، وظل المنصب شاغرا إلى غاية وفاة إيلوخيو سنة 245هـ/859م (Simonet Francisco Javier, 1967 ; 481).

أما إذا لم يكن هناك أي سوء تفاهم بين الشخصية المرشحة لمنصب كنسي والسلطة الإسلامية، فإن هذه الأخيرة تلتزم الحياد ولا تتدخل.

ففي سنة 392هـ/ 1000م حكمت إحدى المحاكم الإسلامية على أسقف مالقة (Malaga) بالسجن خمس سنوات، وأثناء تنفيذه لهذا الحكم اجتمع المجمع الكنسي، وعين أسقفا آخر مكانه، ولكن بعد إطلاق سراح الأسقف الأول رفض الثاني التنازل له عن منصبه، فنشب خلاف بين الأسقفين اضطر على إثره الأول إلى السفر إلى روما والاتصال بالبابا الذي أمر بإرجاعه إلى منصبه، كما أمر بتعيين الأسقف الثاني على رأس أول أسقفية يتم شغورها في مطرانية إشبيلية (Sevilla). (Simonet Francisco Javier, 1967 ; 126).

يتضح من خلال ذلك عدم تدخل المسلمين في شؤون المسيحيين، رغم أن الحاكم المسلم كان يُعْلم عند تعيين مسيحيين في أحد مناصب الوجاهة الكنسية مثل مطران أو أسقف أو قس، كما كان للمسيحيين في الأندلس الحرية المطلقة في التنقل سواء في الداخل أو نحو الخارج، إذ كان بإمكانهم الذهاب إلى بيت المقدس وبيت لحم والناصرة قصد الحج، مثل أسقف إلبيرة ربيع بن زيد (روسيموندو) الذي توجه إلى فلسطين للحج، وأسقف بلنسية (Valencia) الذي توجه إلى بيت المقدس سنة 480هـ/ 1087م وتوفي بها (Duffourcq Charles Emmanuel, 1978 ; 71).

وفي مجال التعبد سمحت السلطات الإسلامية للنصارى في الأندلس بقرع الأجراس داخل الكنائس وخارجها، ويبدو أن ذلك كان أمرا عاديا ومألوفا بين المسلمين لذا ظهر في أشعارهم وأعمالهم الأدبية.

فقد بات أبو عامر بن شهيد ليلة بإحدى كنائس قرطبة (Cordoba)، وأثار انتباهه قرع النواقيس الذي هيج سمعه (المقري أبو العباس، 1997: 1/ 525)، ويؤكد ذلك قوله في إحدى خمرياته:

وَتَرَنَّمَ النَّاقُوسُ عِنْدَ صَلاَتِهِمْ   فَفَتَحْتُ مِنْ عَيْنِي لِرَجْعِ هَدِيرِهِ (ابن بسام الشنتريني، 2000: 1/ 203)

كما جاء على لسان ابن حزم الظاهري:

أَتَيْتَنِي وَهِلاَلُ الجَوِّ مُطَّلِعٌ   قُبَيْلَ قَرْعِ النَّصَارَى لِلنَّوَاقِيسِ
(ابن حزم الظاهري، 2007: 1/ 282).

وتواصل قرع النصارى للنواقيس في الأندلس على امتداد الحكم الإسلامي بها، ولذلك طالب الفقهاء المسلمون من الحكام منع النصارى من ذلك (ابن عبدون التجيبي، 1955: 55).

ورخص الحكام المسلمون للنصارى السير في شوارع المدن الأندلسية في مواكب كنسية حاملين الصليب والشموع الموقدة (Simonet

Francisco Javier, 1967 ; 128)، وخاصة أثناء احتفالاتهم بأعيادهم الدينية.

وقد حرصت السلطات الإسلامية في الأندلس على إيجاد تنسيق مع المؤسسات المسيحية، فقد كانت تستدعي من حين لآخر مجالس مسيحية تضم أساقفة ورهبانا وعربا مسلمين وأسالمة وأحيانا اليهود، بهدف مناقشة مشاكل المسيحيين وعلاقاتهم بأتباع الديانتين الأخريتين، الإسلام واليهودية (Simonet Francisco Javier, 1967 ; 360)، منها على سبيل المثال مجمع القساوسة الذي عقد سنة 225هـ/ 839م ترأسه مطران طليطلة، بمساعدة مطران إشبيلية ومطران ماردة (Merida) (Duffourcq Charles Emmanuel, 1978 ; 83).

وقد اكتسبت الكنيسة الأندلسية خلال الوجود الإسلامي استقلاليتها عن روما مركز البابوية، وذلك بإقرار الحاكم المسلم لمطران الأندلس (مؤنس حسين، 1405هـ/ 1985م: 496)، بينما كان هذا الأخير يعين سابقا من طرف البابا، وبذلك أصبح للكنيسة الأندلسية شخصية متميزة، إذ أصبح لها طقوسها الخاصة بها المسماة بالطقوس المستعربية el rito mozarabe، وهي عبارة عن ترانيم وصلوات تؤدى بلغة عجمية أهل الأندلس، والتي هي مزيج من الرومانية القديمة واللاتينية الدارجة

(اللاطينية) والعربية، والتي ظلت سارية المفعول إلى غاية القرن الحادي عشر الهجري (17م) (مؤنس حسين، 1405هـ/ 1985م: 426- 499).

ومن مظاهر احترام السلطات الإسلامية في الأندلس للنصارى، عدم تدخلها في تنظيمهم الكنسي، بحيث ظلت أرض الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري (نهاية11م) مقسمة إلى نفس المناطق الكنسية التي كانت عليها أيام القوط، أي إلى ثلاث مطرانيات (طليطلة- إشبيلية- ماردة)، على رأس كل منها مطران، وكل منها تتكون من عدة أسقفيات، وكل أسقفية تتكون من عدة أبرشيات.

وقد حافظ المسيحيون على كنائسهم وأديرتهم للجنسين، إذ وصل عدد هذه الأديرة في ضواحي قرطبة لوحدها إلى حوالي خمسة عشر ديرا مسيرة وفق تعاليم مسيحية (Isidro de las Cagigas, 1947 ; 1/58).

وزيادة على كل ذلك فقد سمح المسلمون للنصارى ببناء كنائس جديدة، من ذلك أن عبد الرحمن الداخل (138- 172هـ/ 755- 788م) سمح لهم ببناء كنيسة بقرطبة بدل نصف الكنيسة الذي اشتراه منهم بحوالي مائة ألف دينار ذهب، أي ما يعادل خمس مائة كيلوغرام من الذهب (Simonet Francisco Javier, 1967 ; 201)، بهدف توسيع مسجد قرطبة الجامع، مع العلم أن الفقه الإسلامي وبالأخص المذهب

المالكي يمنع أهل الذمة، سواء في المناطق المفتوحة صلحا أو عنوة، من بناء كنائس (الونشريسي أحمد، 1401هـ/ 1981م: 2/ 247).

وظلت الكنائس في الأندلس تقوم بوظيفتها الاجتماعية المتمثلة في عقد الزيجات، وتعميد المواليد واختيار الأسماء لهم، وتسجيل المبايعات والعقود بين المسيحيين (مؤنس حسين، 1405هـ/ 1985م: 501)، إضافة إلى دورها الديني، كما حافظت على ممتلكاتها المتمثلة في الأموال والأراضي التي أوقفها عليها النصارى؛ فدير رأس القديس فانسان أُوقفت عليه أراضي زراعية واسعة جدا (Christophe picard, 2000 ; 286).

- تمتع المسيحيين بحرية تسيير شؤونهم الإدارية:

يلاحظ من خلال المعاهدات التي أبرمت بين الفاتحين المسلمين وحكام بعض المدن الأندلسية، ومنها المعاهدة التي وقعت بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وتدمير بن عبدوس، والتي يعترف فيها عبد العزيز بحقوق المسيحيين الشخصية والاجتماعية والدينية والثقافية، وحقهم في ملكية الأرض (مارغريتا لوبيز غوميز، 1999: 241)، وهذا دليل على المعاملة الحسنة التي عامل بها المسلمون المسيحيين.

أما وشقة (Huesca) فحاصرها المسلمون خلال الفتح مدة سبع سنوات، ولم يفتحوها بالقوة، وظلوا طيلة هذه المدة، يستغلون الأراضي المحيطة بها، إلى أن استسلم أهلها، فأسلم من أراد، وبقي الآخرون على ديانتهم المسيحية (الحميري عبد المنعم، 1980: 195).

وظلت إحدى الإمارات القريبة من رندة (Ronda)، مسيحية منذ الفتح، إلى أن أسلم أحد حكامها سنة 205هـ/ 820م، فدخلت بذلك تحت إشراف السلطة الإسلامية في قرطبة (Duffourcq Charles Emmanuel, 1978 ; 43).

وصالح سكان ماردة موسى بن نصير، على أموال القتلى يوم الكمين، وأموال الهاربين إلى جليقية (Galicia)، وأموال الكنائس وحليها (مجهول، 1989: 103)، مما يعني أن المسيحيين الذين بقوا داخل المدينة حافظوا على حريتهم وأموالهم وممتلكاتهم بالإضافة إلى الكنائس والأديرة.

من ذلك، نلاحظ أن معاهدات الصلح التي وقعها الفاتحون المسلمون مع حكام المدن الأندلسية المسيحيين، توضح إنسانية المسلمين، وأن الأهالي كانوا المستفيد الأكبر منها، وبالأخص المسيحيين الذين كانوا يشكلون غالبية السكان، وهذا باعتراف المؤرخين الإسبان المعادين لكل

ما هو عربي وإسلامي مثل سيموني (Simonet Francisco Javier, 1967 ; 43).

فضل المسلمون ترك الأهالي، في المدن المفتوحة، يديرون شؤونهم المدنية بالطريقة نفسها التي كانوا عليها قبل الفتح، وكان يشرف على هذه الشؤون مجموعة من الموظفين المسيحيين، ينتخبون من طرف بني ملتهم، يرعوا شؤونهم، ويحكمونهم وفق القوانين المسيحية التي كان معمولا بها في شبه جزيرة إيبيريا قبل الفتح، ويمثلونهم لدى السلطات الإسلامية في الأندلس، ويتمثل هؤلاء الموظفون في:

* القومس: وهي تعريب لكلمة أجنبية conte أو conde، وتعني الأمير بلغة الروم أو الرجل الشريف أو الملك الشريف (ابن منظور الإفريقي، د. ت: 6/ 183).

ورغم أن كل القمامسة الذين وجدوا في الأندلس أثناء الفتح الإسلامي، كانوا من القوط، معينين من طرف السلطة المركزية في طليطلة، إلا أن المسلمين تعاملوا مع بعضهم، ووقعوا معهم معاهدات صلح، مثل تدمير الذي صالحه عبد العزيز بن موسى بن نصير على سبع مدائن (الحميري عبد المنعم، 1980: 132 = Simonet Francisco Javier, 1967 ; 53).

وكان أرطباس بن غيطشة أول من تلقب بالقومس بعد خضوع شبه جزيرة إيبيريا للمسلمين، لقبه به الأمير عبد الرحمن الداخل (ابن القوطية أبو بكر، 1402هـ/ 1982م: 43)، يعني ذلك أن العرب منذ دخولهم الأندلس لم يعينوا قومسا عاما على الأندلس أي أن هذا المنصب ظل مجمدا إلى أن دال الحكم لهذا الأمير سنة 138هـ/ 755م، ويعود ذلك حسب رأينا إلى انعدام الاستقرار السياسي خلال عهد الولاة نتيجة اهتمام بعضهم بالفتوحات فيما وراء جبال البرتات (Pyrénées) والصراعات بين العصبيتين العربيتين اليمنية والقيسية من جهة، وبين العرب والبربر من جهة أخرى.

أما بالنسبة لقمامسة المدن، فقد اكتفى الفاتحون بتثبيت من وقع صلحا معهم في منصبه، وبذلك نلاحظ وجود نوعين من القمامسة:

* القومس العام للأندلس: وكان يعين من طرف الحكام المسلمين (مؤنس حسين، 1405هـ/ 1985م: 460) أو ينتخب من طرف بني ملتهم، ويصادق عليه الحاكم المسلم، ومن مهامه تمثيل مسيحيي الأندلس لدى السلطات الإسلامية المركزية في قرطبة، ويعين قاضي العجم أو ما يسمى كذلك بقاضي النصارى، ويشرف على الكنائس، ويجمع جزية نصارى الأندلس كافة (مؤنس حسين، 1405هـ/ 1985م: 597)، ويحضر مراسيم استقبال السلطات الإسلامية للوفود والشخصيات المسيحية التي تفد

على قرطبة، ويقوم بالترجمة لها وعنها (ابن حيان أبو مروان، 1965: 64)، كما كان الحكام المسلمون يقبلون من بعضهم النصيحة (ابن القوطية أبو بكر، 1402هـ/ 1982م: 43).

وقد احتفظت لنا المصادر التاريخية بأسماء بعض قمامسة الأندلس، وأولهم كما سبقت الإشارة إليه أرطباس بن غيطشة وربيع بن تيودولف الذي كان يحتل هذا المنصب في بداية القرن الثالث الهجري(9م)، وأبو سعيد الذي ينحدر من أرطباس Duffourcq Charles Emmanuel, 1978; 48)، وانتهى وجود هذا المنصب بانتهاء الدولة الأموية وانفصام عقدها.

* قومس المدينة: كان ينتخب من طرف أهل ملته؛ وبخاصة الأثرياء منهم، وتصادق عليه السلطة الإسلامية، وكان له من ينوب عنه في القرى الصغيرة والحصون الداخلة في زمام مدينته (Simonet Francisco Javier, 1967; 108)، ومن مهامه الإشراف على الكنائس، وتولي أمور رجال الدين المسيحيين في منطقته، وجمع الجزية وتقديمها إلى السلطات العليا التي تشرف عليه، والتي تقدمها بدورها إلى السلطات الإسلامية، كما كان يقوم أيضا بتجنيد النصارى المتطوعين بهدف تكوين وحدات عسكرية يتراوح عدد أفرادها بين خمسين ومائة رجل (Duffourcq Charles Emmanuel, 1978; 172)، بطلب من السلطات الإسلامية التي

كانت تستعين بها أحيانا للحفاظ على الأمن الداخلي أو لشن حملات عسكرية على المناطق المتمردة أو الممالك المعادية.

وكان قمامسة المدن والكور بمثابة عين السلطات الإسلامية في مناطقهم، ينبئونها بالأحداث السياسية هناك؛ فقد أرسل قومس لستره من أداني جليقية المسمى غند شلب بن مسرة رسوله سليمان إلى قرطبة في شهر رمضان سنة 360هـ/ 971م بخبر دخول المجوس وادي دويرو، ثم مغادرتهم له في اتجاه شنت برية (Santaver) وبسيطها (ابن حيان أبو مروان، 1965: 27).

ومن المواصفات التي كان يتصف بها القومس، سواء العام أو الخاص، الحنكة والدهاء والمداراة، بالإضافة إلى الشهرة والصيت والجاه عند الحكام المسلمين (ابن الخطيب لسان الدين، 1424هـ/ 2003م: 1/ 21)، كما كان يتصف بالحلم والسلطة على أهل ملته، إذ لا يجب أن يرفضوا له أمرا أو أن يخالفوه (المقري أبو العباس، 1997: 4/ 444- 445).

وكان يساعد القومس مجموعة من الموظفين من بينهم قاضي العجم أو قاضي النصارى، يعين من طرف القومس، وكان مقرّه قرطبة، على أن يعين بدوره قضاة النصارى للكور.

وخلال القرن الرابع الهجري(10م)، وُجد في قرطبة قاضي كبير أو قاضي نصارى الأندلس، وهو جعفر بن ألبر (ابن القوطية أبو بكر، 1402هـ/ 1982م: 21) أحد أحفاد أرطباس بن غيطشة، ووليد بن خيزران قاضي نصارى قرطبة (المقري أبو العباس، 1997: 1/ 390).

ويمكن العثور في ثنايا المصادر، على أسماء عدد من النصارى الذين تولوا هذا المنصب، ومنهم أصبغ بن نبيل الذي أمر الحكم المستنصر بإقصائه وعزله سنة 363هـ/ 974م، لأنه أغضب الخليفة بترجمته لكلام من رسل حلويرة Elvira، فيه بعض الجفاء (ابن حيان أبو مروان، 1965: 146).

وكان هؤلاء القضاة ينظرون في القضايا المثارة بين النصارى وفق القانون القوطي القديم، المسمى باللاتينية Forum Judicum أو Lex Judcum أو Lex Gothorum، ولا يتحاكمون أمام قضاة مسلمين إلا إذا اشتد الخلاف بين متخاصمَيْنِ منهم، وطالت المحاكمة بينهما، فإنهما يضطران إلى عرض قضيتهما أمام قاضي مسلم (Simonet Francisco Javier, 1967 ; 457).

وإذا كانت القضية بين مسلم ومسيحي، فإنها تعرض كذلك على قاض مسلم، أو إذا تعلق الأمر بقضية عقائدية كأن يقوم نصراني بسب

الدين الإسلامي أو سب النبي صلى الله عليه وسلم أو ادعاء فضيلة من فضائل الأنبياء فإنه يمثل أمام قاضي مسلم، مثل النصراني الذي اعتقد أن له فضيلة من فضائل عيسى عليه السلام، فقدم أمام القاضي أسلم بن عبد العزيز (الخشني محمد بن حارث، 1415هـ/ 1995م: 158- 159).

وإلى جانب قاضي العجم، كان يساعد القومس في مهمته موظف آخر هو مستخرج خراج أهل الذمة، أو ما يعرف أيضا بقومس الخزينة comes thesaururum (مؤنس حسين، 1405هـ/ 1985م: 463) أو exceptor (Simonet Francisco Javier, 1967 ; 112) أو veedor، وهو العريف المكلف بحساب الخزينة، ومهمته مراقبة وجمع الجزية والمعاون والمغارم (Duffourcq Charles Emmanuel, 1978; 49).

يتضح إذاً أن النصارى في الأندلس كانوا أحرارا في إدارة شؤونهم المدنية والسياسية وفق التشريعات القوطية التي كان معمولا بها قبل الفتح، حتى أنه يُخيل للدارس وجود نظامين متزامنين في الأندلس، أحدهما خاص بالمسلمين، والثاني خاص بالنصارى، وهذا يدل على مدى احترام المسلمين للحياة الخاصة للمسيحيين، في إطار العهود التي أبرمها الطرفان، وهذا بدوره يوضح المكانة اللائقة والحسنة التي تمتع بها المسيحيون في ظل المجتمع الإسلامي الأندلسي.

ـ الاستعانة بالمسيحيين في إدارة الأندلس:

لم يقم المسلمون بعد فتح الأندلس بترك سكانها جانبا، والاكتفاء باعتبارهم عبيدا وتغريمهم الأموال (Duffourcq Charles Emmanuel, 1978; 39)، إنما قربوهم وقدموهم واستشاروهم في كثير من الأمور، وولوهم مناصب قيادية حساسة سياسية وعسكرية.

فأرطباس بن غيطشة كان يتمتع بمقام كريم بين العرب وأهل جنسه على حد سواء، وكان ولاة الأندلس يستشيرونه إذا حزبهم أمر.

فبعد دخول العرب في طالعة بلج بن بشر إلى الأندلس، نشب صراع بينهم وبين العرب البلديين، الذين رفضوا مكوثهم إلى جانبهم في قرطبة، فاشتد الأمر على الوالي أبي الخطار ولم يجد الحل المناسب له، إلى أن تقدم إليه أرطباس بحل يقضي بتوزيع العرب الشاميين على كور الأندلس، كل مجموعة وفق ما يتلاءم مع المنطقة التي قدمت منها (ابن الخطيب لسان الدين، 1424هـ/ 2003م: 1/ 109)، فاستحسن أبو الخطار الرأي، وقام بإنفاذه.

وحافظ المسيحيون على مكانتهم هذه في عهد الدولة الأموية في الأندلس، فالأمير الحكم الربضي أطلق يد ربيع القومس، متولي المعاهدين، إلى حد أنه كلفه بافتراض المعاون والمغارم على المسلمين (ابن

الخطيب لسان الدين، 1956: 15)، كما كان له خادم مقرب منه كثيرا يسمى بزنت Vicente (الخشني محمد بن حارث، 1415هـ/ 1994م: 44) أو يزنت Jacinto أو لورنت Lorenzo، وهو ا الذي أمره الحكم بأن يناوله زجاجة الغالية عند استعداده للخروج لإخماد هيج الربض (ابن حيان أبو مروان، د. ت: 154).

واستخدم الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، عددا منهم، أبرزهم قومس بن أنتينيان الذي كان قريع كل من ينتحل البلاغة في عصره (ابن حيان أبو مروان، 1393هـ/ 1973م: 142)، وكان له منهج خاص في الكتابة السلطانية (الخشني محمد بن حارث، 1415هـ/ 1994م: 112)، وهو أول من سن لكتاب السلطان وأهل الخدمة، تعطيل الخدمة يوم الأحد من كل أسبوع، وأصبح ذلك عرفا تواصل العمل به إلى ما بعد سقوط الخلافة (ابن حيان أبو مروان، 1393هـ/ 1973م: 138).

ورغم الدسائس والمؤامرات التي حيكت ضد ابن أنيتنيان عند الأمير محمد، بدافع الغيرة (الخشني محمد بن حارث، 1415هـ/ 1994م: 111)، إلا أن هذا الأخير احتفظ به كاتبا إلى غاية وفاته.

وقد ارتفعت مكانة المسيحيين في عهد الإمارة، وبلغت حدا كبيرا، إذ كان الأمراء الأمويون يستشيرون بعضهم، ويأخذون بآرائهم في

مسائل حساسة تتعلق بسياسة الأندلس الداخلية، فقد عزل عبد الرحمن الأوسط، القاضي يخامر بن عثمان الشعباني عن منصبه، بسبب شهادة شهد بها شيخ أعجمي اللسان يسمى ينير، وقد كان هذا الشيخ مقدما عند القضاة مقبول الشهادة (الخشني محمد بن حارث، 1415هـ/ 1994م: 84).

وكان للأمير عبد الله مستشار مسيحي يسمى جذمير العجمي، والذي أشار على الأمير بتولية الحبيب أحمد بن محمد بن زياد اللخمي في منصب القضاء سنة 291هـ/ 904م بدل أبي الغمر بن فهد، وذلك بعد وفاة القاضي محمد بن سلمة (الخشني محمد بن حارث، 1415هـ/ 1994م: 147).

وفي فترة الخلافة تحسنت وضعيتهم ومكانتهم بشكل كبير نظرا لما نالوه من احترام من طرف الخلفاء الأمويين (Isidro de las Cagigas, 1948 ; 2/464)، إذ تم تعيين عدد منهم في مناصب مسؤولية في دواوين الخلافة (Isidro de las Cagigas, 1947 ; 1/60)، فقد ولى الخليفة عبد الرحمن الناصر عريفا من العجم يدعى ابن بزنت على أبذة (Ubeda) (ابن حيان أبو مروان، 1965: 121)، بينما كان مثل هذه المناصب حكرا على المسلمين قبل ذلك.

كما قرب الناصر منه بعضا منهم، مثل ربيع بن زيد المدعو روسيموندو، والذي ينسب إليه المؤرخون المسيحيون كتاب " تقويم قرطبة " أو " كتاب الأنواء " الذي ألفه حسب رأيهم سنة 290هـ/ 901م (Provençal Levy, 1999 ; 3/ 322)، وأهداه بعد ذلك إلى الحكم المستنصر، وكلفه هذا الأخير ببعض المهام الدبلوماسية لدى امبراطور القسطنطينية وامبراطور جرمانيا، ثم قربه منه وجعله محظيا عنده.

وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر يسمحان لكبار ممثلي النصارى، مثل مطران طليطلة وقومس الأندلس وأسقف قرطبة وقاضي النصارى بحضور مراسيم استقبال الوفود الدبلوماسية القادمة من الأقاليم المسيحية الشمالية.

وبعد استئثار المنصور بن أبي عامر بالحكم أبقى للمسيحيين مكانتهم، إذ سمح لهم بالاستراحة يوم الأحد وأيام أعيادهم (دوزي رينهارت، 1963: 2/ 278)، كما أكثر منهم في جيشه، وكان إذا نشب صراع أو نزاع بين جنديين أحدهما مسلم والآخر مسيحي، يقف ابن أبي عامر إلى صف المسيحي (Simonet Francisco Javier, 1967 ; 629-630)، وهذا ما يوضح بجلاء المكانة الحسنة التي كانوا يتمتعون بها في الأندلس.

وبعد وفاة المنصور بن أبي عامر حافظوا على مكانتهم إذ أن ابنه عبد الملك، بعد توليه منصب الحجابة، لم يكن يحس بالمتعة إلا رفقة ضباط حرسه المُكوَّنِ في أغلبه من المسيحيين والبربر (Provençal Levy, 1999 ; 2/278).

ولكن بعد اضطراب الأمور في قرطبة، واندلاع الفتنة بها مع بداية القرن الخامس الهجري (11م)، وسقوط الخلافة الأموية، تغير وضع سكانها عامة، بما في ذلك أهل الذمة، إلا أن سيموني يرى أن وضع مسيحيي قرطبة تحسن بسبب حضور فرقة عسكرية من قطالونيا (Cataluña) وقشتالة (Castilla)، قصد المشاركة تارة إلى جانب أحد طرفي الفتنة القرطبية حين اندلاعها سنة 399هـ/ 1008م سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن الناصر لدين الله، أو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله الملقب بالمهدي، وأن الانتصارات التي حققتها هذه الفرق ساهمت في تحرير الكنيسة من الاضطهاد، وأن مسيحيي قرطبة تحمسوا لدخول هذه الفرق وسَعِدوا بهذه الانتصارات (Simonet Francisco Javier, 1967 ; 647- 648).

ويناقض إيزيدرو دي لاس كاخيغاس مواطنه سيموني الرأي، ويعتبر أن حضور فرق قطلانية وقشتالية إلى قرطبة أيام الفتنة، ولَّد لدى سكان هذه المدينة من المسلمين الحقد على المسيحيين، مما اضطر هؤلاء،

إلى الهجرة نحو طليطلة أو نحو شرق الأندلس (Isidro de las Cagigas, 2/404 ; 1949).

إن وجهتَيْ نظر المؤرخَيْن الإسبانيَيْن، لا تعدو أن تكون مجرد افتراضات شخصية غير مستندة على أدلة مادية، ورغم اختلاف رأييهما إلا أنهما يعبران عن حقدهما وكراهيتهما للإسلام عامة، والوجود الإسلامي في الأندلس خاصة.

وفي ظل دويلات الطوائف حافظ المسيحيون على وضعهم ومكانتهم التي كانوا يتمتعون بها قبل الفتنة، ففي دولة بني زيري الصنهاجية في غرناطة (Grenada)، كانت غالبية النصارى تعيش في قريتين هما ربينة وجطرون (ابن بلقين عبد الله، 1995: 116)، وكانوا يتمتعون بالسلم والأمان، ومن بينهم عَيَّنَ باديس بن حبوس أبا الربيع النصراني وزيرا له (ابن بلقين عبد الله، 1995: 94)، رغم أن هذا الأخير كان قد فرّ إلى دانية عند هيج عامة غرناطة، وقتْلِ وزيرها اليهودي ابن النغريلة، فاستقدمه باديس وعينه على المنصب المذكور رغم معارضة العامة الغرناطية، والتي عبر عنها الشاعر السميسر بقوله:

كل يوم إلى ورا   بدل .... بال..
فَـزَمَانًـا تَهَـوُّدا   وَزَمَـانًـا تَنَصُّـرَا

وَسَيَصْبُو إِلَى المَجُوسِ إِنِ الشَّيْخُ عَمَّرَا (السلفي أبو طاهر، 1963: 83)

وفي مملكة إشبيلية نعم المسيحيون بحياة هادئة ومستقرة، إذ كان لملكها المعتضد بن عباد (433-461هـ/ 1041-1069م)، مجموعة من النصارى، يستعين بهم في إدارة شؤون دولته، منهم شيشند (Sisendo) الذي رباه هذا الملك، ثم رفع من مكانته فاستوزره وكلفه بسفارة لدى ملك قشتالة فرناندو، ثم عينه قائدا على جيش مملكة إشبيلية (Isidro de las Cagigas, 1948 ; 2/457)، مما يبرز الثقة الكبيرة التي وضعها المعتضد في هذا المسيحي، والمكانة الراقية التي حظي بها عنده.

أما المعتمد بن عباد فكان له بعض النصارى ضمن مقربيه، منهم ابن المرعزي، وهو شاعر من نصارى إشبيلية، ومن مداحي ملكها المذكور (ابن سعيد علي، 1955: 1/ 269)، إذ يقول فيه:

اللهُ أَكْـبَرٌ أَنْـتَ بَـــدْرُ طَالِـعٌ وَالنَّقْعُ دَجْـنٌ وَالكُمَاةُ نُجُومُ

وَالجُودُ أَفْلاَكٌ أَنْتَ مُدِيرُهَـا وَعَدُوُّكَ الغَاوِي وَهْنٌ رَجُومُ

(المقري أبو العباس، 1997: 3/ 522).

ويقول في كلبة صيد أهداها إلى المعتمد بن عباد:

لَمْ أَرَ مَلْـهَى لِـذِي اقْتِنَاصِ وَمَـقْـنَـعَ الـكَلْبِ الحَـرِيـصِ

كَمِثْلِ خَطْلاَءَ ذَاتِ جِيد   أَغْيَدَ تَبْرِيَةَ الْقَمِيصِ

كَالقَوْسِ فِي شَكْلِهَا وَلَكِنْ   تَنْفُذُ كَالسَّهْمِ لِلْقَنِيصِ(

ابن سعيد علي، 1955: 1/ 269).

وفي مملكة سرقسطة تولى عدد من النصارى المعاهدين مراكز ووظائف هامة، من بينهم أبو عامر بن غندشلب (Ibn Gundisalvo)، الذي عينه المقتدر بن هود (438- 474هـ/ 1046- 1081م) على رأس الوزارة، ولقبه بذي الوزارتين (Simonet Francisco Javier, 1967 ; 660)، وكان أحد المكلفَيْنِ من قبل إقبال الدولة بن مجاهد حاكم دانية والجزر الشرقية (436- 468هـ/ 1044- 1075م) والمعتصم بن صمادح حاكم ألمرية (Alméria) (443- 484هـ/ 1051- 1091م) والمقتدر بن هود بالتوسط بين المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة (435- 467هـ/ 1043- 1074م) والمعتمد بن عباد لإصلاح العلاقة بينهما (المقري أبو العباس، 1997: 3/ 405- 406).

وشكل النصارى خيرة أفراد الجيش السرقسطي إلى غاية سقوط المدينة في يد النصارى سنة 519هـ/1119م، ولعل أبرزهم السيد الكمبيطور المسمى رودريغو دياز بيبار El Cid Campeator, Rodrigo Diaz Vivar، والذي كان قد لجأ إلى سرقسطة فرارا من قشتالة، فعلا شأنه عند المؤتمن بن هود حاكم سرقسطة (474- 478هـ/1080-

1085م)، وترقى في وظيفته حتى أصبح مستشاره السياسي والعسكري (دندش عصمت، 1995: 106)، أما في مملكة بني ذي النون بطليطلة، فكان النصارى يشكلون نسبة كبيرة من رعاياها، وكانوا يتمتعون بحرية تامة (Provençal Levy, 1931 ; 36- 37).

واستخدم محمد بن جهور حاكم قرطبة(435-457هـ/ 1043-1065م)، فرنان غومس القشتالي El conde Fernan Gomez، مما سمح بعودة بعض المسيحيين الذين غادروا قرطبة خلال الفتنة (Simonet Francisco Javier, 1967 ; 657)، وقام أبو الوليد بن جهور حاكم قرطبة (435- 457هـ/ 1043- 1065م) بتعيين أبي الوليد بن زيدون للنظر في بعض الأمور التي تعترض أهل الذمة (ابن بسام الشنتريني، 2000: 1/ 261) الشيء الذي يوحي بالأهمية التي كان يوليها الحكام المسلمون لرعاياهم من أهل الذمة، وبخاصة المسيحيين منهم.

إضافة إلى ما ذكر، فإن نصارى الأندلس لم يتعرضوا، طيلة الحكم الإسلامي، إلى أية عقوبة جماعية، مثلما حدث في المشرق الإسلامي، إبان الدولة العباسية، وبخاصة أيام الخليفة العباسي المتوكل على الله (232-247هـ/ 846- 861م)، وفي مصر الفاطمية، أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (386- 411هـ/ 996- 1020م)، بالرغم من قيامهم ببعض التصرفات التي تستوجب إنزال عقوبات جماعية بهم، ففي الفترة من

236 إلى 245هـ/ 850-859م، شهدت البلاد موجة من التعصب الديني المسيحي، مركزها العاصمة قرطبة (العبادي مختار، 1972، 356)، تمثلت في " حركة الإستشهاديين أو الإنتحاريين"، إذ قام عدد من المسيحيين المتعصبين بسب الدين الإسلامي والنبي محمد صلى الله عليه وسلم، جهارا في الشارع أمام الملإ وأمام القاضي (العبادي مختار، 1972، 357)، ونتيجة ذلك تم إعدام حوالي خمسين منهم لأنهم لم يريدوا التراجع عن فعلتهم (220 -1/211 ; Isidro de las Cagigas, 1947).

كما تجب الإشارة إلى ثورة المولدين في منطقة ريه (Rayo) بزعامة عمر بن حفصون، والتي انتشرت نارها في كل أنحاء الأندلس (ابن حيان أبو مروان، 1937: 51)، استغلها النصارى للتألب، مع الأسالمة والمولدين ضد العرب.

ورغم ذلك، لم تسجل المصادر والوثائق إلزام السلطات الإسلامية النصارى بلبس الغيار، أو الحد من حقوقهم السياسية والدينية في أي وقت من الأوقات.

تجنيدهم في الجيش:

استعان المسلمون بنصارى الأندلس، وجندوهم في الجيش، فقد كان بلج بن بشر أول من جند عددا من الأهالي المزارعين من بين عبيده وعبيد الشاميين (ابن القوطية أبو بكر، 1402هـ/ 1982م: 118).

كما جند الحكام الأمويون النصارى بأعداد معتبرة، حتى شكلوا مع البربر حامية قوامها أربعين ألفا في جيش الأمير عبد الرحمن الداخل (مجهول، د. ت: 68)، ويمكن أن يعود تجنيد عبد الرحمن لهذا العدد الكبير من النصارى في جيشه، إلى عدم ثقته في العرب بلديين وشاميين وخشيته من غدرهم به، ولذلك سعى إلى القضاء على كل من كان يشك فيه حتى الذين صالحوه مثل الصميل ويوسف الفهري (مجهول، 1989: 148- 149)، كما يمكن أن يعود أيضا إلى محاولته التخفيف من العصبية العربية في الجيش لما كان يحدث من صراعات بين الشاميين والبلديين أو بين العرب القيسية والعرب اليمينية من جهة، وبين العرب والبربر من جهة أخرى، وبعد أن وطد عبد الرحمن الداخل الحكم لنفسه أراد أن يأمن غوائل العرب والبربر، فلجأ إلى كسر شوكتهم بتجنيد المزيد من الأهالي.

ويبدو أن خلفاءه حذوا حذوه، فالحكم الربضي (180- 206هـ/ 796- 822م) كانت له حامية تتكون من أعاجم لا يحسنون التكلم بالعربية، لذلك سماهم العامة "الخرس"، جيء بهم من شمال الأندلس، وبخاصة من غاليسيا (Galicia)وبلاد الإفرنج (ابن سعيد علي، 1955: 1/ 39)، قدر عددهم بحوالي ثلاثة آلاف جندي (ابن حيان أبو مروان، د. ت: 297)، وزعهم الحكم على ثكنتين مجاورتين لقصره، وتم تنظيمهم في شكل وحدات تضم كل منها مائة جندي يشرف عليهم عريف، وكانت الحامية كلها تحت قيادة المستعرب ربيع بن تيودولف (Provençal Levy, 1/190 ; 1999)، وهي التي استعان بها الحكم في سحقه لثورة الربض سنة 202هـ/ 817م.

إضافة إلى هذه الحامية، اتخذ الحكم حرسا خاصا به متكونا من مائة وخمسين رجلا من أربونة Narbonne، مسلحين بمختلف الأسلحة، وكان يفضل هذا الحرس عن سائر وحدات جيشه، لأن عناصره كانوا أوفياء ومخلصين له جسدا وروحا (Duffourcq Charles Emmanuel, 1978; 172)، ولذلك كانوا يتمتعون بامتيازات حسدتهم عليها العامة (Provençal Levy, 1999 ; 3/210).

وبعد نجاح الحكَم في إخماد ثورة الربض، أعتق عددا من مماليكه، وبالأخص حرسه الخاص، وأتبعهم أموالهم، ووالى الإحسان إليهم وصيرهم بطانة له دون سواهم (ابن حيان أبو مروان، د. ت: 154- 155).

وعقب وفاة الحكم الربضي، تولى الإمارة ابنه عبد الرحمن الثاني (206- 238هـ/ 822- 852م) الذي اشترى أنصباء إخوته من المماليك العجم، وكان عددهم حوالي خمسة آلاف مملوك؛ فاستخلصهم لنفسه، ثم أعتقهم جميعا (ابن حيان أبو مروان، د. ت: 297)، وبذلك أصبحوا جزء من المجتمع الأندلسي. كما جند عبد الرحمن الناصر (300- 350هـ/ 912- 961م) عددا من المماليك الأعاجم في جيشه (ابن حيان أبو مروان، 1979: 77)، وازداد عددهم على عهد المنصور بن أبي عامر.

وعلى كل فإن انخراط المسيحيين في الجيش الإسلامي، سواء في عهد الدولة الأموية أو ملوك الطوائف، يعود لسببين رئيسيين هما الرواتب المرتفعة التي كانوا يتقاضونها، والمكانة اللائقة التي كانوا يتمتعون بها، إذ كان بإمكانهم الحصول على رتب ومهام عليا (Simonet Francisco Javier, 1967 ; 368).

وتواصلت في عهد ملوك الطوائف، عملية تجنيد النصارى، ففي زمن المنذر بن يحيى التجيبي حاكم سرقسطة (403- 412هـ/ 1012-

1021م) كان قائد جيشه مسيحيا مملوكا يدعى خيار، يشرف على قيادة فرقة من الجيش، أفرادها من المسيحيين(المقري أبو العباس،1997: 3/ 265).

من ذلك كله، يمكننا أن نستنتج أن النصارى كانوا مواطنين يُستخدمون في الجندية بنفس درجة المسلمين، وكان لبعضهم امتيازات حسدهم المسلمون عليها.

الخاتمة:

مما سبق يتضح أن حكام الأندلس المسلمين إبان الدولة الأموية وملوك الطوائف لم يقوموا بتهميش رعاياهم المسيحيين، بل منحوهم امتيازات وحقوقا فاقت في بعض الأحيان تلك التي كفلها لهم الشرع الإسلامي، إذ استخدموهم كوزراء وكتاب في دواوين الإنشاء، وقدموهم أحيانا على المسلمين، ومنحوهم حرية كبيرة في تسيير شؤونهم الإدارية والإجتماعية والدينية، ووفروا لهم الأمن والإستقرار، وجنودهم في الجيش بحيث وصل بعضهم إلى أعلى مراتب الجندية، أي باختصار يمكننا القول بأنهم كانوا مواطنين كاملي الحقوق، ولم يكن يميزهم عن المسلمين سوى الجزية.

وفي انتظار العثور على المصادر الأندلسية المفقودة وإخراجها إلى النور والتي ستمكن الباحثين حتما من الوصول إلى حقائق جديدة وربما

أكثر أهمية عن علاقة المسلمين بالمسيحيين في الأندلس، وتزيد من دحض افتراءات الكتاب الغربيين المتعصبين ضد الحضارة الإسلامية الوسيطية، لا يسعنا إلا أن نقول بأن المجتمع الأندلسي في عهد الدولة الأموية وملوك الطوائف مثَّل صورة رائعة للتعايش بين أتباع الديانات السماوية الثلاث.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجحفي، (1407هـ/ 1987م)، **صحيح البخاري**، ط3، بيروت، دار ابن كثير.

- ابن بسام الشنتريني، (2000)، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

- ابن بلقين عبد الله بن باديس، (1995)، **كتاب التبيان**، الرباط، منشورات عكاظ.

- ابن حزم الظاهري، (2007)، **رسائل ابن حزم**، ط 2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ـ الحميري عبد المنعم، (1980)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ط2، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة.

ـ ابن حيان أبو مروان، (1979)، **المقتبس** (الجزء الخامس)، مدريد وكلية الآداب بالرباط، المعهد الإسباني العربي للثقافة.

ـ ابن حيان أبو مروان، (د. ت): **السفر الثاني من كتاب المقتبس**، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

ـ ابن حيان أبو مروان، (1393هـ/ 1973م)، **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، بيروت، دار الكتاب العربي.

ـ ابن حيان أبو مروان، (1965)، **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، بيروت، دار الثقافة.

ـ الخشني محمد بن حارث، (1415هـ/ 1994م)، **قضاة قرطبة وعلماء إفريقية**، القاهرة، بيروت، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني.

ـ ابن الخطيب لسان الدين، (1424هـ/ 2003م)، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

ـ ابن الخطيب لسان الدين، (1956)، **تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام،** ط2، بيروت، دار المكشوف.

ـ أبو داود سليمان ابن الأشعث السجستاني، (د. ت)، **سنن أبي داود،** بيروت، دار إحياء التراث العربي.

ـ دندش عصمت، (1995)، **علاقة الأندلس بمملكة قشتالة من خلال الأقليات (أهل الذمة) إلى القرن السابع الهجري،** تنسيق محمد حمام، الغرب الإسلامي والغرب المسيحي، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صص 101–116.

دوزي رينهارت، (1963): **تاريخ مسلمي إسبانيا،** القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، دار المعارف

ـ ابن سعيد علي، (1955)، **المغرب في حلى المغرب،** ط3، القاهرة، دار المعارف.

ـ السلفي أبو طاهر، (1963)، **أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي،** ط1، بيروت، دار الثقافة.

ـ الشكعة مصطفى، (1407هـ/ 1987م)، **المغرب والأندلس: آفاق إسلامية وحضارة إنسانية ومباحث أدبية**، ط1، القاهرة، بيروت، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني.

ـ العبادي أحمد مختار، (**1972**)، **في التاريخ العباسي والأندلسي**، بيروت، دار النهضة العربية.

ـ ابن عبدون التجيبي، (1955)، **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.

ـ ابن القوطية أبو بكر، (1402هـ/ 1982م)، **تاريخ افتتاح الأندلس**، ط1، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

ـ مارغريتا لوبيز غوميز، (1999)، **المستعربون نقلة الحضارة الإسلامية في الأندلس**، ترجمة أكرم ذا النون، تنسيق سلمى الخضراء الجيوسي،الحضارة العربية في الأندلس، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، صص 267-283.

ـ **مجهول**، (1989)، **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.

ـ **مجهول**، (د. ت)، **فتح الأندلس في عهد موسى بن نصير**، الجزائر، منشورات دحلب.

ـ المقري، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني، (1997م)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، بيروت، دار صادر.

ـ ابن منظور الإفريقي، (د. ت)، **لسان العرب**، ط1، بيروت، دار صادر.

ـ مؤنس حسين، (1405هـ/ 1985م)، **فجر الأندلس**، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

ـ الونشريسي أبو العباس أحمد، (1401هـ/ 1981م)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب**، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

المراجع الأجنبية:

- Duffourcq Charles Emmanuel, (1978), La Vie Quotidienne dans l'Europe Médiévale Sous Domination Arabe, 1ere édition, Paris, Hachette.

- Isidro de las Cagigas, (1947), Los Mozarabes, tomo I, Madrid, Instituto de Estudios Africanos.

-Isidro de las Cagigas, (1948), Los Mozarabes, tomo II, Madrid, Instituto de Estudios Africanos.

- Christophe picard, (2000), Le Portugal Musulman (VIII-XIII siècle) l'Occident d'Al Andalus sous domination islamique, Paris, Maisonneuve et Larose.

- Provençal Levy, (1999), Histoire de l'Espagne Musulmane, 2eme édition, Paris, Maisonneuve et Larose, 1999.

- Provençal Levy, (1931), Alphonse VI et la prise de Tolède 1085, in Hesperis, tome XII, fscicule 1,Paris, librairie Larose,

- Simonet Francisco Javier, (1967), Historia de los Mozarabes de España, Amsterdam, Oriental Press.